الإعجاز البياني وجه من وجوه بلاغة العربية
الإمام الخَطَّابِي أنموذجاً

أ. د. عبد الجليل مصطفاوي

نسعى في هذه المداخلة أن نقف على ملامح الإعجاز البياني كما وصفه الإمام أبو سليمان الخطابي (ت ٣٨٨هـ) في رسالته الموسومة " بيان إعجاز القرآن" ؛ و ذلك لما لتحليلاته الدقيقة وتوجيهاته البيانية من أثر في بلاغة اللغة العربية و سماتها الجمالية و الأسلوبية، فقد أبدع في الوقوف على هذه السمات ملحاً على أثرها في العقول و في النفوس.

ولا يخفى مدى العلاقة بين الدراسات القرآنية و الدراسات المتصلة بالنقد و البلاغة العربية وفنون القول نثرا و شعرا، وأثر كل ذلك على اللغة العربية وخصائصها وجمالياتها.

يحاول هذا البحث أن يستجلي ملامح البلاغة القرآنية في رسالة الخطابي[١] الموسومة " بيان إعجاز القرآن " ؛ وذلك لما لها من أهمية في هذه الرسالة الثرية، على الرغم من قصرها وإيجازها، فقد ورد مصطلح البلاغة المتصل - في تحليلات الخطابي - بالقرآن الكريم في مواطن متعددة من هذه الرسالة، وارتبط في كثير من أبعاده بالنظم والإعجاز القرآني، وبجمال العربية وسماتها التعبيرية المتميزة.

ورد أولا في أثناء تعداده لوجوه الإعجاز القرآني التي بدأها بالصَّرْفة، ثم الإخبار عما يكون في مستقبل الزمان نحو قوله تعالى ألم، غُلِبت الرُّومُ في أدنى الأرض، وهم من بعد غَلَبِهِم سيَغْلِبون في بِضْعِ سنين[٢].

ثم تحدث بعد ذلك عن الوجه الثالث من وجوه الإعجاز، وهو البلاغة، الذي عزاه إلى الأكثرين من علماء أهل النظر، كما قال. غير أن معظم هؤلاء جروا في الحديث عن بلاغة القرآن على ضرب من التقليد وغلبة الظن دون تحقيق في الأمر أو إحاطة به. فالبلاغة عند هؤلاء هي شيء يهزنا، ويحرك مشاعرنا، ويكون له مفعول السحر في نفوسنا التي تطرب له، ولكننا لا نستطيع تحديد ملامحه أو تصوير معالمه أو كشف أسباب وقعه في النفوس الذواقة؛ فللكلام الموصوف بالبلاغة عذوبة في السمع، وهشاشة في النفس، ولكننا لا نستطيع الوقوف على علة ذلك وأسبابه[٣].

وقد مثل هؤلاء - كما يذكر الخطابي - بالقصة التي حدثت بين الشاعر ذي الرُّمَّة الذي مرَّ به جرير، وقد عمل قصيدته التي مطلعها:

نَبَتْ عيناكَ عن طَلَلٍ بحُزْوى
عفَتْهُ الريح وامتنَحَ القطَارَا

فأنجده بأبيات تزيد فيها، وحينما أنشدها الفرزدق، وبلغ الأبيات المدخولة قال الفرزدق: " ليس هذا من بحرك، مُضيفُها أشدُّ لَحَيَيْن منك "[٤] ؛ أي أمكن منك وأقدر على الشعر. والقائلون بهذا الرأي يرون أن الفرزدق قد أدرك ذلك بطبعه ولطف ذهنه وحسن تمييزه بين أساليب العربية وتنوع نسوجها. ومن هنا نخلص إلى أن البلاغة عند هؤلاء تتصل بذوق السامع ومقدرته على الإحساس بجمال الكلام وأثره في النفوس، وأن ذلك أمر لا يمكن تحديده أو تصويره...

ولكن هل يقنع الخطابي بهذا المذهب في الحديث عن البلاغة القرآنية التي هي وجه من وجوه جمال اللغة العربية، وحسن نظمها وتنوع أساليبها؟

الواقع أن الخطابي لا يقنع بذلك، إذ لابد للكلام الذي هذه صفته، ولاسيما القرآن الكريم، الذي تصطلح من أجله الألسن " على أنه كلام لا يشبهه كلام، وتَحْصَرُ الأقوال عن معارضته، وتنقطع به الأطماع عنها، أمر لا بد له من سبب بوجوده يجب له هذا الحكم، وبحصوله يستحق هذا الوصف"[٥]. ومن هنا فلا بد من الاستقراء والتقصي للوقوف على علة تفسير هذا الأثر الذي يحدثه الكلام البليغ في النفوس.

وقد علل الخطابي ذلك باختلاف أجناس الكلام وتفاوت مراتبها في

البيان، وتباين درجاتها في البلاغة. وهذه الأجناس تتراوح بين الأوصاف الثلاثة التالية؛ فمنها البليغ الرصين الجزل، ومنها الفصيح القريب السهل، ومنها الجائز الطلق الرسل. فالبلاغة عنده لا تعدو هذه الأقسام الثلاثة.

وقد حازت البلاغة القرآنية من كل قسم من هذه الأقسام حصة، ومن كل نوع من أنواعها شعبة؛ ومن ثم فقد جمعت بين صفتين من الكلام هما: الفخامة والعذوبة اللذان هما كالمتضادين؛ لأن:

العذوبة ـــ انتاج السهولة.

والفخامة ـــ ونتاج الجزالة والمتانة.

يقول الخطابي: "فكأن اجتماع الأمرين في نظمه مع نُبُوّ كل واحد منهما فضيلة خُصَّ بها القرآن، يسَّرها الله بلطيف قدرته ليكون آية بينة لنبيه، ودلالة له على صحة ما دعا إليه من أمر دينه"٦. وقد تكرر حديثه عن البلاغة والعذوبة في مواقع كثيرة من رسالته، حيث يقول عن القرآن الكريم بأنه "جمع البلاغة والفخامة إلى العذوبة والسهولة"٧.

وقد قاده دفاعه عن البلاغة القرآنية إلى الرد على من يحاول الحط من شأنها لخلوها من الغريب؛ لأن الغرابة ـ كما يؤكد ـ ليست شرطا من شروط البلاغة، وإنما " يكثر وحشي الغريب في كلام الأوحاش من الناس والأجلاف من جفاة العرب الذين يذهبون مذاهب العنجهية، ولا يعرفون تقطيع الكلام وتنزيله والتخير له"٨. فالبلاغة القرآنية منزهة عن ذلك؛ لأنها تتوخى النمط الأقصد من الألفاظ .

وهو يرى أن العلة في تفوق البلاغة القرآنية أنها توفرت لها الأركان التالية: فصاحة الألفاظ ، وحسن نظوم التأليف، وصحة المعاني. وهو هنا يخالف رأي الجاحظ الذي يذهب في بعض كلامه إلى أن المعاني مطروحة في الطريق؛ إذ يقول الخطابي:" فأما المعاني التي تحملها الألفاظ فالأمر في معاناتها أشد، لأنها نتائج العقول وولائد الأفهام وبنات الأفكار"٩.

فعمود البلاغة عنده أن يوضع كل نوع" من الألفاظ التي تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأخص الأشكل به، الذي إذا أبدل مكانَه غيرُه جاء منه إما تبدُّل المعنى الذي يكون معه فساد الكلام، وإما ذهاب الرونق الذي يكون معه سقوط البلاغة"١٠.

وهو يركز على أن اللفظ لا يكون بليغاً في ذاته؛ أي أن اختياره يكون على أساس تأديته التامة للمعنى المنوط به. وقد قاده هذا الأمر إلى الإشارة إلى أن في الكلام ألفاظا متقاربة المعاني، مما يجعل أكثر الناس يتوهمون أنها متساوية في إفادة المقصود بالخطاب، نحو العلم والمعرفة، والحمد والشكر، والشح والبخل، والنعت والصفة، و(عن) و(من) وغير ذلك... في حين أن بينها فروقاً لا يعرفها إلا المتأمل لهذه اللغة العربية الشريفة١١.

وقد دعاه ذلك إلى الرد على الطاعنين في بلاغة القرآن، المنكرين أن تكون عباراته وألفاظه قد وقعت في أفصح وجوه البيان وأحسنها؛ إذ ورد في القرآن ـ كما يدَّعون ـ أشياء بخلاف هذا الوصف كقوله تعالى (أَكَلَهُ الذِّئْبُ)١٢. قالوا إنما " يستعمل مثل هذا في فعل السباع خصوصاً الافتراس، يقال افترسه السبع، هذا هو المختار الفصيح في معناه، فأما الأكل فهو عام لا يختص به نوع من الحيوان دون نوع "١٣ ، وكقوله تعالى (ذلك كَيْلٌ يَسِيرٌ)١٤، قالوا " وما اليسير والعسير من الكيل والاكتيال، وما وجه اختصاصه بهذه وأنت لا تسمع فصيحاً يقول: كِلْتُ لزيد كيلاً يسيرا إلا أن يعني به أنه يسير العدد والكمية"١٥.

وكقوله تعالى (هلكَ عنِّي سُلطانِيَهْ)١٦، قالوا " وإنما يستعمل لفظ الهلاك في الأعيان والأشخاص كقوله: هلك زيد وهلك مال عمرو ونحوهما، فأما الأمور التي هي معان وليست بأعيان ولا أشخاص فلا يكادون يستعملونه فيها. ولو قال قائل: هلك عن فلان علمه أو جاهه على معنى ذهب علمه وجاهه لكان مستقبحاً غير مستحسن"١٧.

وعرضوا آيات كريمة أخرى وَسَمُوا عباراتها بسوء التأليف وقصر الباع في النظم ودلالات الألفاظ١٨. وقد رد الإمام الخطابي كل افتراءاتهم بتبصُّر ودقة يَشِيَان بفهم كبير لأسرار العربية ودقائقها، ومقدرة عجيبة على تفهُّم النص القرآني وظلاله.

قال:"والجواب أن القول في وجود ألفاظ القرآن وبلاغتها على النعت الذي وصفناه صحيح لا ينكره إلا جاهل أو معاند، وليس الأمر في معاني هذه الآي على ما تأوَّلوه، ولا المراد في أكثرها على ما ظنوه وتوهَّمُوه"١٩.

فأما قوله تعالى (أَكَلَهُ الذِّئْبُ)٢٠ فإن الافتراس"معناه في فعل السبع القتل حسب، وأصل الفَرْس دقُّ العنق. والقوم إنما ادَّعَوْا على الذئب أنه أكله أكلا، وأتى على جميع أجزائه وأعضائه، فلم يترك مفصلا ولا عظما؛ وذلك أنهم خافوا مطالبة أبيهم إياهم بأثر باق منه يشهد

بصحة ما ذكروه، فادَّعَوا فيه الأكل ليزيلوا عن أنفسهم المطالبة. والفَرْسُ لا يعطي تمام هذا المعنى، فلم يصلح على هذا أن يعبر عنه إلا بالأكل "٢١. هذا فضلا عن أن لفظ الأكل شائع الاستعمال في الذئب وغيره من السباع، كما ذكر الخطابي الذي أورد أشعارا وأقوالا دالة على ذلك٢٢.

وأما قوله (ذلك كَيْلٌ يَسيرٌ)٢٣ فقال الخطابي بشأنه " فإن معنى الكيل المقرون بذكر البعير المكيل، والمصادر توضع موضع الأسماء كقولهم: هذا درهم ضربُ الأمير، وهذا ثوب نسجُ اليمن؛ أي مضروب الأمير ونسيج اليمن. والمعنى أنَّا نزداد في الميرة المكيلة إذا صَحِبَنا أخونا حمل بعير، فإنه كان لكل رأس منهم حمل واحد لا يزيده على ذلك لعزة الطعام، فكان ذلك في السنين السبع القحطة، وكانوا لا يجدون الطعام إلا عنده ولا يتيسر لهم مرامه إلا من قبله؛ فقيل على هذا المعنى: ذلك كَيْلٌ يَسيرٌ؛ أي متيسر لنا إذا تسببنا لذلك باستصحاب أخينا "٢٤. وذكر الخطابي أيضا أن هذا الاستعمال شائع في كلام العرب لما يسهُل من الأمور، وأورد له شواهد شعرية٢٥.

وأما قوله تعالى (هلكَ عنِّي سُلطانِيَهْ)٢٦ فإنهم بزعمهم أن الهلاك " لا يستعمل إلا في تلف الأعيان فإنهم ما زادوا على أن عابوا أفصح الكلام وأبلغه. وقد تكون الاستعارة في بعض المواضع أبلغ من الحقيقة كقوله عز وجل (وآيَةٌ لهم الليلُ نَسْلَخُ منه النَّهارَ)٢٧، والسلخ ههنا مستعار وهو أبلغ منه لو قال: نُخرِجُ منه النهار، وإن كان هو الحقيقة. وكذلك قوله سبحانه (فاصْدَعْ بما تُؤْمر)٢٨ هو أبلغ من قوله: فاعمل بما تؤمر، وإن كان هو في الحقيقة، والصدع مستعار، وإنما يكون ذلك في الزجاج ونحوه من فِلِّز الأرض، ومعناه المبالغة فيما أمر به حتى يؤثر في النفوس والقلوب تأثير الصدع في الزجاج ونحوه. وكذلك قوله تعالى: هَلَكَ عنِّي سُلطانِيَه؛ وذلك أن الذهاب قد يكون على مراصدة العَوْد، وليس مع الهلاك بُقْيَا ولا رُجْعى، وقد قيل إن معنى السلطان ههنا الحجة والبرهان "٢٩.

وقد رد الخطابي أيضا على هؤلاء الطاعنين في بلاغة القرآن الكريم، والذين قالوا إن من عيوبه الحذف والاختصار كما في قوله تعالى(ولَوْ أَنَّ قرآناً سُيِّرَتْ به الجبالُ أو قُطِّعَتْ به الأرضُ أو كُلِّمَ به الموتى)٣٠، فقال إن الإيجاز ههنا في موضعه، وقرَّر حقيقة بيانية هي أن حذف " ما يستغنى عنه من الكلام نوع من أنواع البلاغة"٣١.

وإنما جاز حذف الجواب وحسن لأن" المذكور منه يدل على المحذوف والمسكوت عنه من جوابه، ولأن المعقول من الخطاب عند أهل الفهم كالمنطوق به. والمعنى: ولو أنَّ قُرآناً سُيِّرتْ به الجبال أو قُطِّعتْ به الأرض أو كُلِّمَ به الموتى لكان هذا القرآن"٣٢. وقد أكَّد أن الحذف في مثل هذا أبلغ من الذكر؛ لأن" النفس تذهب في الحذف كل مذهب، ولو ذكر الجواب لكان مقصورا على الوجه الذي تناوله الذكر، فحذف الجواب كقوله: لو رأيت عَلِيّاً بين الصفينع وهذا أبلغ من الذكر لما وصفنا"٣٣.

والخلاصة أنَّ مصطلح البلاغة عند الخطابي مرتبط باللفظ والمعنى والتأليف، مثلما أوضحنا، ولا بد أيضا إلى أنَّ هذا المصطلح عنده كان متداخلا ومتشابكا مع عدة مصطلحات أخرى كالبيان والفصاحة، فهو يقول" وليس ذلك بالمستحسن ولا بالمختار عند أهل البلاغة وأرباب البيان"٣٤.

وليس ذلك غريبا إذا علمنا أن هذا الأمر كان شائعا عند القدماء؛ فقد كانت مصطلحات البلاغة والبيان والبديع والفصاحة والخطابة تأخذ أحيانا نفس المدلولات في مباحث علمائنا القدامى، ولم تتحدد معالمها ومفاهيمها إلا في القرون المتأخرة بدءا من عصر السكاكي المتوفى في سنة ٦٢٦هـ الذي مخض زبدة البلاغة العربية، وهذَّب مسائلها، ورتَّب أبوابها كما يذكر ابن حلدون٣٥.

الهوامش

١ هو الإمام الأديب اللغوي الفقيه المحدِّث أبو سليمان حَمْدُ بن محمد بن إبراهيم الخطابي، ولد في عام ٣١٠هـ وقيل ٣١٩هـ وأقام ببُست من بلاد كَابُل، وإليها نسب، وفيها توفي في عام ٣٨٨هـ ، ينظر ياقوت الحموي، معجم البلدان، المجلد الخامس، الجزء التاسع، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت ١٩٧٠م ، ص:٢٦٨ ـ ٢٦٩.

٢ الروم، الآيات١-٣

٣ ينظر الخطابي، بيان إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق محمد زغلول سلام و محمد خلف الله، دار المعارف بمصر، ط١، ١٣٨٧ هـ-١٩٦٨م، ص٢٤.

٤ نفسه، ص٢٥.

٥ نفسه، ص٢٥-٢٦.

٦ نفسه، ص٢٦.

٧ نفسه، ص ٣٧.

٨ نفسه، ص ٣٧.

٩ نفسه، ص٣٦.

١٠ نفسه، ص٢٩.

١١ نفسه، ص٢٩ وما بعدها.

١٢ يوسف، الآية ١٧.

١٣ بيان إعجاز القرآن، ص٣٧.

١٤ يوسف، الآية ٦٥.

١٥ بيان إعجاز القرآن، ص٣٧.

١٦ الحاقة، الآية٢٩.

١٧ السابق، ص٣٨.

١٨ نفسه، ص٣٨-٣٩.

١٩ نفسه، ص٤٠-٤١.

٢٠ يوسف، الآية ١٧.

٢١ بيان إعجاز القرآن، ص٤١.

٢٢ نفسه، ص٤١-٤٢.

٢٣ يوسف، الآية ٦٥.

٢٤ بيان إعجاز القرآن، ص٤٢.

٢٥ نفسه، ص ٤٢-٤٣.

٢٦ الحاقة، الآية٢٩.

٢٧ يس، الآية ٣٧.

٢٨ الحجر، الآية ٩٤.

٢٩ بيان إعجاز القرآن، ص٤٤.

٣٠ الرعد، الآية ٣١.

٣١ بيان إعجاز القرآن، ص ٥٢.

٣٢ نفسه، ص ٥٢.

٣٣ نفسه، ص٥٢.

٣٤ نفسه، ص٤٠.

٣٥ ينظر مقدمة ابن خلدون، دار العودة، بيروت، ص٤٨٥.